أزمة الذات بين الرغبة في الانبعاث ورُهَاب التّغيير في رواية: " أربعمائة متر فوق مستوى الوعي " لـ " محمّد بن جبّار

The self-crisis between the desire for rebirth and the fear of change in a novel "Four hundred meters above the level of consciousness" by Mohammed bendJebbar

بن عودة دولات سروري *

تاريخ الإرسال: 2021/01/15	تاريخ القبول: 06 / 04 / 2021	تاريخ النشر: 30 / 06 /2021

الملخص:

اتّخذ الرّوائيّ من أسطورتي " سيزيف " و " الفينيف " رمزين معبّرين عن الحالة الشّعوريّة للشّخصيّة، فـ " عوّاد " عاش تحت مستوى الوعي داخل مدار الأربعمائة متر، وكان يلزمه حدثٌ يجعله يدرك حقيقة وضعه السّيزيفيّ، فكانت العلاقة الّتي جمعته " بـ " ورديّة " بمثابة **الحدث الصّادم** الّذي أكسبهُ وعيًا، وحفّزه على الرّغبة في الانبعاث.

وعلى الرّغم من **التّغيّر** الكبير الّذي لحقه جراء الوعي الجديد المكتسب، بدءًا بتمرّده على وضعه المهنيّ، ثمّ ثورته النّفسيّة النّاقمة على وضعه الوجوديّ، وصولا إلى اكتشافه زيف قناعاته التّاريخيّة، إلاّ أنّ سطوة التّاريخ ولّدت لديه أزمة نفسيّة، ووقفت حائلا بينه وبين رغبته في الانبعاث، مجبرة إيّاه على الرّضا بالوضع السّيزيفيّ الّذي سبق وأن نقم منه.

الكلمات المفتاحية: سيزيف، الفينيق، الانبعاث، رُهاب التّغيير.

Abstract:

The novelist drew from the myths "Sisyphus" and "the Phoenix" two symbols expressing the emotional state of the character, since "Aoued" lived below the level of consciousness in the orbit of four hundred meters, and it was necessary that an event makes him realize the reality of his situation

جامعة لونيسي علي – البليدة2 serouri48@hotmail.fr

***جامعة لونيسي علي – البليدة2 serouri48@hotmail.fr**

as a Sisyphus. The traumatic event that sensitized him and stimulated his desire for rebirth. Despite the great change that happened to him as a result of the new awareness acquired, starting with his rebellion against his professional situation, then his indignant psychological revolution against his existential situation, reaching his discovery of the falsity of his historical convictions, but the hold of history generated a psychological crisis for him, and it ceased to prevent him from renewing his desire for resurgence. And she forced him to accept the Sisyphian situation, which he had previously rejected.

***Key words**: Sisyphus, Phoenix, rebirth, the fear of change.*

*** *** ***

- مقدمة:

تأثّر الخطاب السّرديّ العربيّ المعاصر بالأسطورة، وتفاعل الرّوائيّون مع هذا التراث الإنسانيّ، فوظّفوها في نصوصهم، مستفيدين منها من ناحيتي الرّؤية والتّشكيل، وحينما تتوازى الأسطورة مع تجربة الأديب، وتتقاطع مع مواقفه ورُؤاه، فإنّها تتحوّل إلى مُعادلٍ موضوعيّ لما يريد البَوْحَ به، وتسهم أيّمَا إسهامٍ في منح النّص تفرّده المنشود.

وقد استوحى الأدباء والشّعراء من الأساطير مفاهيمَ متنوعةً ومختلفةً، بسبب اختلاف وجهات نظرهم وقراءاتهم لها، فلسفيّا، واجتماعيّا، وثقافيّا... وما هذا البحث إلاّ رؤية نفسيّة لدَوَاعِي توظيف أسطورتي " سيزيف " و" الفينيق " في رواية (أربعمائة متر فوق مستوى الوعي) لـ " محمّد بن جبّار ".

- فما هي الأهداف المتوخاة من وراء هذا التّوظيف؟ وهل أسعف انتقاءُ هذين الرّمزين الرّوائيَّ في تصوير الحالة النّفسيّة للشّخصيّة الطامحة إلى الخروج من وضعٍ وجوديّ إلى آخر؟ وما الّذي كبح الرّغبة لديها في التّجدّد والانبعاث؟

تنهض الرّواية محلّ الدّراسة على أسطورتَيْن، تناوبتا الحضور والغياب خلال مراحل السّرد: الأولى (أسطورة سيزيف) الّتي تمثّل فترة ما قبل الوعي لدى الشّخصيّة، والثّانية (أسطورة الفينيق) الّتي تمثّل فترة ما بعد الوعي. وعلى الرّغم من إدراك الشّخصيّة

لوضعها " السّيزيفيّ " السّابق، وسعيها الحثيث إلى الانفلات منه، نتيجة التغيّر الّذي طال جوانب من حياتها النّفسيّة، إلاّ أنّها عجزت عن الانتقال أو العبور إلى وضع وجوديّ آخر، جرّاء " رُهَاب التّغيير".

2)- **الوضع الوجوديّ للذات داخل مدار مغلق (أسطورة سيزيف)**

شكّل الوضع الوجوديّ للإنسان المعاصر مادة خصبة للبحث لدى الفلاسفة والعلماء في شتى فروع المعرفة، ولم يَشُذَّ الحقل الرّوائيّ عن هذا الاهتمام بمأساة الإنسان المعاصر، حيث نحَا الكثير من الرّوائيّين بكتاباتهم ناحية العلاقات المشوّهة بين الإنسان وعالمه، وما ينجم عنها من صراعٍ داخليّ مُؤرّق، نتيجة العجز عن المواءمة بين متطلّبات هذا الكائن المتفرّد بما يحمله من مقوّمات أخلاقيّة وسِمات فكريّة، كالوعي، الإرادة، الحرية، والمسؤوليّة ... وبين تعسّف العالم الخارجيّ وإصراره على سلبِهِ مقوّماته السّالفة، الّتي تمنحه وجودا إنسانيّا خالصًا. هذا الموقف فرض على الرّوائيّ المعاصر تمثّل محاولات الإنسان الأوّل في إدراك واقعه، « **فلم يجد غير العودة إلى الوعاء الأوّل، إلى الأسطورة، يستلهِمُها، يوظّفها، يُعيد بناء العالم الّذي ينشده بكلمات طقوسها.** »[1] ما مكّنه من « **استحضار الإنسان الأوّل في أنقى صُوَره وأبهاها (..) والإفادة من الغنى الفنيّ الموجود فيها، والّذي يُساعده على اكتشاف ذاته، وتعميق تجربته الشّعريّة.** »[2]

وليست الرّموز الأسطوريّة مجرّد ترفٍ لغويّ توظّفُ من قبيلِ التّنميق، بل هي « **تجسيدٌ لموقف ما، أو مُعادل لموضوع ما، يتطلّب اختيارًا صحيحا للرّموز الأسطوريّة المعبّرة عن الحالة الشّعوريّة، كما يتطلّب أن تكون هذه الرّموز موحية، بعيدة عن المُباشرة والتّراكم، يتطلّبها السّياقان الشّعريّ والشّعوريّ.** »[3] لهذا كان انتقاءُ الرّمز المراد توظيفه فعلا واعيا، مقصودًا، يؤدّي وظائفه المنوطة به، مثلما يتجلّى في انتقاء " محمّد بن جبّار " لأسطورتي " سيزيف " و " الفينيف " دون سواهما، بغية تصوير وضع " عوّاد "، الّذي حصل له وعيٌ بحقيقة الوضع السّيزيفيّ الّذي عاشه طيلة فترة أدائه وظيفته الإداريّة، ثمّ محاولته الانعتاق ممّا اعتبره قيودا، سعيًا منه إلى التجدّد والانبعاث.

2-1)- **الحياة السّيزيفيّة داخل مدار مغلق**:

استهلّ الرّاوي السّرد بفقرة يعرّفُ فيها القارئ بعالم الشّخصيّة البطلة " عوّاد "، هذا العالم لا يعدو أن يكون مسافةً يذرعها يوميّا – ذهابا وإيّابًا - بين موقف الحافلة، ومقرّ العمل، وهي مسافة مقدّرة بأربعمائة وعشرة أمتار: « **أربعمائة وعشرة أمتار هي المسافة المحسوبة بين مقرّ العمل، وأوّل نقطة انتظار الحافلة، تلك المسافة أحفظها منذ أكثر من أربع وعشرين سنة (..) وأنا لا أحيد قيد أنملة عن مساري بين موقف الحافلة ومقرّ القسم، أذرع تلك المسافة، ولا أعرف شيئا خارج ذلك المدار.** »[4] ولشدّة ما دأبت الشّخصيّة على قطع تلك المسافة طيلة فترة عملِها المقدّرة بأربعٍ وعشرين سنةً، أصبحت مدارَها الّذي تحيا فيه، ولا تَحِيد عنه، ولا تعرِف ما يدور خارجه: « **في مسافة أربعمائة وعشرة أمتار عالم يتحرّك، تلاميذ المدرسة والمتوسّطة، معلّمون يُسرعون الخطو، الأهالي مُنصرفون لشؤونهم اليّوميّة، سيّارات، مُشاة، محلات تجاريّة، محلّ لتصليح وطلاء السّيّارات، مقبرة النّصارى، مدرسة تعليم السّيّاقة، محلّ بيع الأثاث القديمة، بساتين الزّيتون، مزرعة نموذجيّة، مدرسة ابتدائيّة، ومقرّ عملي.** »[5]

وبفعل هذا الارتباط الوثيق بين الشّخصيّة ومدار الأربعمائة متر، أصبحت قطعة منه يُستدَلّ بها على الوقت، لا تختلف عن الأشياء أو المحلات الموجودة فيه: « **أصبحتُ بعد هذه السّنوات الطويلة واحدا من الّذين يُستدَلُّ بهم على التّوقيت، عادة ما أمرّ أمام العمارة على التّاسعة صباحا (..) وأعود من العمل على الرّابعة مساءً.** »[6]

فوضعُ " عوّاد " داخل مداره، والّذي **لا يحيد عنه، ولا يعرف شيئا خارجه** مُماثلٌ لوضع " سيزيف " الّذي « **عُوقِبَ بأن يعمل بلا نهاية، ولا توقّف في العالم السّفليّ إلى الأبديّة، إذ حكمت عليه الآلهة بأن يُدحرج مرمرةً إلى قمّة تلٍّ، ثمّ تسقط قبل وصولها القمّة.** »[7] وعليه فقد تحوّلت الشّخصيّة إلى " سيزيف " بفعل التّكرار ورتابة الحياة: « **أنا قد اعتدتُ على حياةٍ رتيبة ميكانيكيّة، لا بهارات فيها ولا توابل، هي نفس النّكهة منذ أن تذوّقتُ طعم الحياة (..) لا أعرف شيئا آخر له مذاقٌ متميّز.** »[8]

وأصبح مصيرُها نفسَ مصير " سيزيف " الّذي سلّطت عليه الآلهة أقسى عقوبة: « **هذه الدّوامة الرّهيبة تستمرّ إلى الأبد، يا له من مصير كارثيّ ! يقول ألبير كامو: " هذا**

العبث والخيبة والهزيمة الّتي تتكرّر في ديمومة أبديّة، لهي من أسوأ العقوبات الّتي عُوقِب بها سيزيف. »[9]

ولعلّ الشّخصيّة لم تشعر بالضجر طيلة تلك الفترة، لأنّها لم تجرّب مذاق العيش خارج ذلك المدار، ولم تعلم بوجود أشكالٍ أخرى من الحياة - خارجه - بنكهاتٍ مختلفة: « **منذ أربع وعشرين سنةً أسير في نفس الطّريق، في نفس الشّارع، في نفس الاتّجاه، في نفس التّوقيت، ورغم ذلك لم أشعر بأنّ هناك حياة أخرى أكثر إثارة، الحياة بألوان الطّيف، الحياة بنكهة متعدّدة وذوق متميّز.** »[10] وكان يلزمها حدثٌ يجعلها تدرك أنّ « **الحياة أكثر وأكبر من مجرّد أربعمائة وعشرة أمتار.** [11] »، فكان لقاؤه بـ " ورديّة " والتّجربة الّتي خاضها معها، بمثابة الحدث الّذي سيُغيّر " عوّاد "، ويجعله يكتشف حقيقة وضعه السّيزيفيّ، وينقم من أيامه المكرورة الّتي جعلت حياته رتيبة، مملّة .

2-2)- **<u>الحدث الّذي غيّر مسار حياة الشّخصيّة</u>**:

يسرد " عوّاد " ظروف تعرّفه على البيطريّة " ورديّة "، فيقول: « **معرفتي بورديّة تعود إلى عشر سنوات، تحديدا إلى 1998، كنت مكلّفا بمنطقة نائية، وكنت أساعدها في ضبط قوائم الفلاحين (..) كنتُ أنتظرها بالسّيّارة الإداريّة كلّ يوم، نخترق الجبال أمام مخاطر الإرهاب، السّائق يُلحّ عليها بأن ترتدي حجابًا، لكنّه تصرّ إصرارا على لباسها المدنيّ، يدهش أهالي القرى وهي دائما بسروال جينز، وشعرها غير المغطّى (..) اكتشفت أنّها امرأة متحرّرة لا تلتفت إلى هذا العالم المغرق حتى الثمالة في أعرافٍ وتقاليدٍ.** »[12]

ولأنّ " ورديّة " امرأة متحرّرة، فإنّ العلاقة بينها وبين " عوّاد " « **تُوِّجتْ سريعا بموعد غراميّ، في شقّتِها القريبة من مقرّ عمليّ، (..) ليلة مُثيرة لم أشهدها في حياتي.** »[13] ولعلّ تأثير تلك العلاقة المميّزة على نفسيّة " عوّاد "، هو الّذي دفعه إلى الاعتراف بأنّها ليلة لا مثيل لها في حياته، حيثُ شعر بأنّ " ورديّة " سرّبت له شيئًا من تحرّرها عبر تلك العلاقة، ودفعته إلى التّخليّ عن تحفّظه وخجله، حتى بدا كأنّه شخصٌ آخر: « **أقمتُ معها علاقة (..) حتى أنا لم أصدّق أنّني ذلك الموظّف الممل الجافّ، المتخلّق، الرّزين المتواري وراء أقنعة سميكة من الاعتبارات الاجتماعيّة والأخلاقيّة والمهنيّة**

(..) تحرّرت من خجلي، وتحفّظي. »[14] وهذا **التّغيّر** من شخصٍ خجول، متحفّظ، مملّ، وجافّ... إلى شخصٍ متحرّر، اعتبره " عوّاد " أوّل وأكبر درس تعلّمه في الحياة: « **تلك الشّقة الّتي شهدت ليلة مثيرة لن أنساها ما حييتُ، تعلّمت فيها أوّل وأكبر الدّروس، لا أغضب من ورديّة، أنا تلميذها.** »[15]

ثمّ يقارن بين اللّيلة الّتي قضاها في شقّة " ورديّة "، وبين اللّيالي الكثيرة الّتي قضاها في سريره الزّوجيّة، معترفًا بأنّ: « **ليلة مع ورديّة تُعادل ألف ليلة من اللّيالي الّتي عشتها مع زوجتي الّتي أنهكتها التّربيّة والتّفكير في المعيشة وتنشئة الأبناء على أخلاق أبيهم.** »[16] ذلك أنّ سريره الزّوجيّة لم تسلم – هي الأخرى – من الرّتابة والرّوتين، بسبب انغماس كلا الزّوجين في تربيّة الأبناء وتنشئتهم على حسابِ حياتهما الخاصّة، الّتي تحوّلت إلى مقبرة عاطفيّة، هذا ما جعله يُحسّ بالفرق بين اللّيالي الكثيرة الّتي تقاسمه زوجتُهُ فيها السّرير، والليلة الّتي قضاها في شقّة " ورديّة ".

3-2) - **اكتشاف وضع الذات وبداية الوعي:**

تلك اللّيلة جعلت " عوّاد " يستفيق من سُباته، وكانت سببًا في اكتشافه حقيقة الوضع الّذي كان فيه داخل مداره، والّذي اعتبره - هو نفسُهُ - حياةً دون مستوى الوعي: « **استضافتني في ليلة لم أكن أحلم بها، كأنّني استيقظت من سبات عميق، وعرفت أنّ العالم جميل يستحقّ أن نعيشه بتفاصيله (..) أيقنت أنّني كنت أعيش في مقبرة عاطفيّة، ودون مستوى الوعي بالحياة.** »[17] ووصل به الحدّ إلى اعتبار أنّه كان في عداد الأموات قبل أن تنتشله " ورديّة "، وتعرّفه على المعنى الحقيقيّ للحياة: « **اكتشفت بعد تلك اللّيلة مع ورديّة، أنّي مجرّد قبر يسير إلى حتفه، بكلّ رتابة إلى حدّ السّخافة.** »[18] وسببُ مأساته – في نظره - أنّه: « **معتادٌ على التّعامل مع الأشياء بنظرة وحيدة، بلونَيْ السّواد والبياض، بآليّة أبيقوريّة اللّذة أو الألم، الأشياء الّتي تؤلمني أبتعد عنها، وأتفادها لأقصى درجة، هذه الأفكار صنعت منّي إنسانا بليدًا، ورجلا مُمِلا ومُقرفًا وساذجا.** »[19]

ولم تكن حياة " عوّاد " المهنيّة أفضل حالاً من حياته العاطفيّة، بل كانت هي الأخرى شكلاً من أشكال الاستعباد والتّدجين: « **أعترف أنّ هذه المهامّ الإداريّة أسْرٌ للعقل وللرّوح، نفس الحركات ونفس المهامّ أنفذّها منذ أربع وعشرين سنة، لم أسْتفد إلاّ**

مـن دفـع تكـاليف الحيـاة الحيوانيّـة، مـن مأكـل ومشـرب وملـبس، وتكـاليف المـاء والكهرباء، لم أعش كما يجب أن يعيش الإنسان في زخم الحياة وتعقيداتها وأبعادها ولـذّاتها (..) الإدارة أسـوأ مـن الحيـاة نفسـها، تجعلك مُخـدّرا إلى حـدّ لا تـدرك الحيـاة نفسها ولا تشعر بها إلاّ بعد فوات الأوان، لحُسن الحظّ أنّني أعرف هذا وأشعر به. »[20] لقد أدرك أنّ الوظيفةَ أفقدته إنسانيّته وحوّلته إلى رجل آليّ، يقوم بالعمل ذاته مرارًا وتكرارًا، وضعٌ أشبه بعقاب الآلهة لـ " سيزيف "، لا فرقَ بين عمل " سيزيف " العبثيّ، اللا مجدي، وعمل "عـوّاد " طيلـة أربع وعشـرين سـنة : « **الوظيفـة اغتصـبت أدميّتي وزهـرة العمـر مقابـل لا شـيء، لاشـيء تقريبـا، جعلتني أحتضـر لمـدة أطـول (..) أعـيش أسِـيرَ وُجودٍ وظيفيّ، من الصّعب الانفكاك منه بسهولة.** »[21]

إنّه يـدرك أنّه مسـجون في مكتبـه، معاقـبٌ لا قُـدرةَ لـه على الانفكاك من أسْـرِهِ، تمامًا مثلما كان " سيزيف " عـاجزًا عـن التّوقـف عن رفع الحجر إلى أعلى التّلّ، رغم علمِهِ بأنّه سيسـقط بفعـلِ فاعـلٍ إلى الأسـفل. واسـتدعاء الرّوائيّ لهـذه الأسـطورة في هـذا الموقـف المأساويّ لإنسانٍ معاصر، راجع إلى ما تكتنزه من مشاعر وأحاسيس، فـ « **عـادةً ما نجد في الأسـاطير مشـاعر إنسـانيّة جيّاشـة، وأحاسـيس، وتصـوّرات، ومواقـف تطلِعُنا على فلسـفة الإنسـان في الوجود (..) وتعاملَهُ مع واقعه، وفق منطق خاصّ.** »[22]

هـذا الـوعيُ الّـذي اكتسـبته الشّخصيّة بعـد إدراكهـا حقيقـةَ وجودهـا المُسـتَلَب، دفعهـا إلى عقد مقارنات بين وضعها ووضعٍ من حولها، فازدادت قناعاتُها بأنّ الارتباط بالوظيفة هـو ما سلبها الحريّـة الّتي تعـدّ أهـمّ مقوّمات الوجـود : « **كنتُ ألاحظ الأشخاص الغرباء المسـافرين (..) يبـدو أنّهـم متحـرّرون من كلّ شيء، عكس ارتبـاطي بالوظيفـة والزّمـان والمكان.** »[23] مـا أفضـى إلى **تغيّر** نظرتـه إلى الوظيفـة الّتي ظلّ وفيًّـا لهـا أكثر مـن أربعٍ وعشـرين سـنةً، فصـارَ لا يُطيـقُ العـودةَ إليهـا: « **مـا يُغيظني حقّـا هـو أن أعـود إلى تلـك المسـافة الأربعمائيّـة، أعبرهـا في كلّ المواسـم، في كلّ الظـروف كآلـةٍ بشـريّة تسـير إلى حتفها بتأنٍ.** »[24]

وعليـه: فـإنّ العلاقـة الّتي جمعـت بـين " عـوّاد " و " ورديّـة " كانـت بمثابـة **الحـدث الصّادم**، الّذي حفّزه على معاودة النّظر في حياته، ليكتشـف أنّه كان يعيش داخل مدار

الأربعمائة متر، في ووضعٍ وجوديٍّ مُماثل لوضع " سيزيف "، هذا **التّغيّر** الّذي طرأ عليه أكسبهُ وعيًا، وجعله يصطلح على وضعه السّابق بـ " الحياة تحت مستوى الوعي. "

3)- **<u>رغبة الذات في التجدّد والانبعاث</u>: (أسطورة الفينيق)**

بعد **التّغيّر** الّذي طال الشّخصيّة، والوعي الجديد المكتسب عَقِبَ العلاقة الّتي جمعت " عوّاد " بـ " ورديّة "، تتلاشى أسطورة " سيزيف " من ثنايا السّرد، فاسحةً المجال لبروز أسطورة " الفينيق phoenix " ، ذلك الطّائر المُقدّس الّذي يُعدُّ شكلاً « **من الأشكال الّتي تتجلّى فيها أسطورة البعث عند الإغريق، طائر الفينيق (..) الّذي يستطيع أن يُعيد إنتاج نفسه بنفسه.** »[25] بواسطة « **حرق نفسه، ومن الرّماد المتخلّف يحيا من جديد، ويتجدّد شبابه ليعيش مرّة أخرى.** »[26]

لقد عبّر " عوّاد " في الكثير من المواقف عن رغبته في **التّجدّد** والانبعاث، ومن أمثلة ذلك: « **آه هذه فرصة كي أُجَدَّدَ وأُرَمَّمَ.** »[27] وفي موقف آخر يجيب " ورديّة " الّتي توعّدته بالقتل ممازحةً إيّاه: « **قتلك جميل، يعيد بعثي من جديد.** »[28] وتجدر الإشارة إلى أنّه على الرّغم من أنّ الأساطير تشير إلى أحداثٍ وقعت في الماضي، إلاّ أنّ « **القيمة الفعليّة للأسطورة، تكمن في أنّ هذه الأحداث الماضيّة، إنّما هي أحداثٌ دائمة تفسّر الحاضر والماضي والمستقبل.** »[29] فهي تزوّدُ الإنسان بصورة كليّة عن العالم الّذي يعيش فيه، أو بـ « **نماذج منطقيّة تكون قادرة على قهر التّناقضات الّتي يعيشها في الواقع.** »[30]

1-3)- **<u>ورديّة (المُخلّصة) ومهمّة نقل البطل من وضع وجوديّ إلى آخر</u>:**

تقوم " ورديّة " بدورٍ هامّ في هذا العمل الرّوائيّ، إذ تضطلِعُ بمهمّة مساعدة البطل " عوّاد " ، وهي – في نظره - بمثابة المُخلّصة: « **اشتقتُ إلى ورديّة (..) مخلّصتي الوحيدة من هذا العالم الكئيب الذي أحياه (..) وحدها تجعل معنى لحياتي، ومُبرّرًا مقنعا لوجودي على هذه الأرض.** »[31] فالتّجربة الجسديّة الّتي جمعته بها، خلّصتْ جسدَهُ من عُفُونة السّنين وكدَرِ الأيام المكرورة الّتي قضاها بين البيت والوظيفة: « **أنتظر أن تدعوني ذات ليلة، أستمتع بجسدها الأبيض الشّفاف كقطعة صابون، أغسل بها روحي وعلائق عشرات السّنين من الغدو والرّواح في تلك المسافات (..) ورديّة تعصر روحي، تعجنه، تنشره، تقطّر منه عصير الرّوح والجسد (..) تُخرج مني كلّ الآفات والآهات والهواجس والصّدأ، آه يا ورديّة، كم أنت عظيمة بأنوثتك.** »[32]

فـ **مهمّتها الأولى** تمثّلت في تحرير " عوّاد " من سجنه الوجوديّ، ومَنْحِهِ فرصةَ تجريب أوضاع حياتيّة أخرى مختلفة عمّا عهِدَهُ داخل مدارهِ الّذي لا يتجاوز عالم الأربعمائة متر، و**مهمّتها الثانية** تحريره من قيود الأعراف الاجتماعيّة، ودفعه إلى إعادة النّظر في تكوينه النّفسيّ المُسرف في تقديس الإرث الأخلاقيّ. أمّا **مهمّتها الأخيرة** – وهي أصعب – فتتمثّل في **تغيير** قناعاته تجاه بعض القضايا الحسّاسة، كالتّاريخ الجمعيّ للأمّة.

وليست هذه المهامُ مجتمعةً سوى **موتًا وانبعاثًا**: موت " عواد " الّذي كان يحيا تحت مستوى الوعي، وبعث " عوّاد " آخر يعيش فوق مستوى الوعي، لذا كان لزامًا على **المخلّصة** أن تقتل وتُحْيِي فتبعثَ خلقًا جديدًا: « **عندما تأتي إليّ لا تأتي محمّلا بعائلتك وغبائك، اترك كلّ شيء خلفك، أنا أحتاجك وحدك، لأقتلك وأشنقك، وأصنع منك إنسانا آخر، إنسانا جديدا، تحتفي بالحياة، وتحتفي الحياة بك.** »[33]

وقد نجحت (ورديّة / المخلّصة) في **مهمّتها الأولى**، حيث قلبت حياة " عوّاد "، وأذاقته طعمًا آخر للحياة بنكهة مختلفة عن حياته السّابقة: « **لقائي بها قلبَ حياتي رأسا على عقب، اكتشفت معنى أخر للحياة.** »[34] كما نجحت أيضًا في **مهمّتها الثانية** المتمثّلة في تحريره من قيود الأعراف، يظهر ذلك في قوله: « **لم أعد آبَهُ للخيانة الزّوجيّة وتلك الهالة الّتي تحيط بها، أعتقد أنّي كسرت تلك القداسة، ورديّة كسرت تلك الحدود الحمراء الّتي سيّجت بها شخصي..** »[35] فنظرته إلى الشّرائع الاجتماعيّة تغيّرت كُليّا، بعد أن صار يعتقد أنّ: « **كلّ إطار يوضع للإنسان هو بالدّرجة الأولى تقييد لحريّته، اللّعبة تبدأ بمبادئ، وتنتهي بقوانين تحكمها عقوبات زجريّة (..) الإنسان الحرّ هو من يتنصّل من هذه القوانين.** »[36] لكنّها ستجد – لاحقًا – صعوبةً في **مهمّتها الأخيرة**، المتمثّلة في حمله على معاودة النّظر في قناعاته المرتبطة بالتّاريخ الجمعيّ.

3-2)- <u>**الرّغبة في الانعتاق وبوادر الثّورة النّفسيّة**</u>:

ظهرت بوادر التّمرّد لدى " عوّاد " بعد **التّغيّر** الّذي مَسّهُ فأكسبَه وعيًا جديدًا، ما جعله ينفُر من نمط حياته السّابقة داخل المدار، معتبرًا إيّاه وجها آخر من أوجه الانتحار: « **الانتحار ليس كما يتصوّره البعض وضع حدّ للحياة بكلّ وقاحة (..) الانتحار هو أيضا عندما تسير بنفس الخطوات، وبنفس العقليّة، وبنفس الحمل**

الأخلاقيّ والـدّينيّ والمجتمعيّ، تسير في نفس الاتّجاه، وتلوك نفس الكلام، ونفس الأفكار، وتُصاحِب نفس الأشخاص، وتعتقد نفس الاعتقاد، وتلبس نفس اللّباس. »[37] ثمّ انتقل هذا الشّعور إلى الوظيفة الّتي تغيّرت نظرته إليها، وصار يعتبرها وجها آخر من أوجه الاستعباد والتّدجين: « **هذه الوظيفة حوّلتنا إلى كائنات عجيبة، مقزّزة، خاملة، منبطحة، ساذجة تعيش ببُعد واحد.** »[38] وسرعان ما يجهرُ بنيّته في التّمرّد: « **هذه الإدارة اللّعينة تحاول تدجيني، وقد فعلت فيّ فعلتها، حوّلتني إلى إنسانٍ مقرف (..) سوف أثور عليهم، لأنّهم سرقوا أدميّتي (..) تحوّلنا إلى كائنات ممسوخة، تترقّب نهاية الشّهر للحصول على مرتّب.** »[39]

ثمّ يباشرُ في تجسيد تمرّده عمليّا، حيث صار يرفض الانصياع إلى الإجراءات الإداريّة الّتي اعتبرها تقييدًا لحريّته: « **دخلت إلى مكتبي، ولم أزر مكتبها لأمضي في ورقة الحضور، فقد ضجرت من هذه العادات الإداريّة (..) خرجت خديجة كأنّ شيئا ما حدث: صباح الخير، لم تزرنا اليوم ! قلت لها: مللْتُ من ورقة الحضور (..) أنا موظّف منذ خمس وعشرين سنة، وهذا العمل الإداريّ حوّلني إلى مجرّد شخصٍ يملأ الفراغات (..) اندهشت من تمرّدي الواضح.**

فتحت عينيها جيّدا، قالت يا سلام! ثورة حقيقيّة. (..) يمكن أن تتعرّض للمساءلة.

- فليعملوا ما شاء لهم أن يعملوا، لن أتقيّد بالمواقيت. »[40]

ومرّدُ عدم امتثاله لضرورة الإمضاء اليوميّ على ورقة الحضور، هو إدراكه ما في هذه العادة من تقييد للحريّة، وخنقٍ للفكر، فمثل هذه الإجراءات الإداريّة « **تخلق في الإنسان العادة، والحلم يخلق فيه الإبداع، وبين العادة والإبداع فروقاتٌ كثيرة جدّا، فالعادة تقييد والحلم إلهام.** »[41] ولهذا السّبب صار يتفادى كلّ ما يمتّ للعادة بصِلةٍ، ويسعى للانحراف عن مداره ولو بشكلٍ مؤقّت: « **وصلتُ إلى نهاية الشارع الطويل، الّذي يتقاطع مع طريق العودة الاعتياديّ، فتفاديته إلى شارع جانبيّ آخر، حتى أشعر أنّني لستُ في الخدمة، وأنّني في عطلة.** »[42] وانصبّ تفكيره في إيجاد مخرج مناسب يحرّره من مأزق الارتباط بالإدارة وما فيها من استعبادٍ وظيفيّ: « **الزّمن ليس في صالح أحدٍ، أصدقائي عندما أسألهم يقولون بالإجماع: " نريد أن نصِل إلى نقطة النّهاية بأقلّ**

الخسائر" أدركت هذا، ولا أريد أن أصل إلى نقطة النّهاية بذلك الشّكل المقرف، أريد الوصول إليها بطريق فرعيّ آخر، أقلّ شيء أنّني لا أفتح محلا للموّاد الغذائيّة، أو محلا للأكل السّريع، أريد أن أجد لها صيغة أخرى توافق تطلّعاتي. »[43]

ثمّ لا يلبث هذا التّمرّد أن يصير **ثورة نفسيّة** عارمة، نتيجة رغبته الجامحة في فكّ ارتباطه بالوظيفة ولو عن طريق الاستقالة، وتخوّفه من عواقب الإقدام على ذلك رغم اقتناعه بضرورة المخاطرة: « **توّجهت إلى الإدارة كأنّني زبون أو أحد مرتاديها، وليس أحد مستخدميها، مشيْت وأنا ساخط أصرخ من أعماقي (..) الطريقة الوحيدة لفكّ ارتباطي مع الإدارة هو الاستقالة، سرعان ما تهاجمني المخاوف من كلّ الجوانب (..) وحدهم الّذين يُخاطرون يربحون حياتهم وأنفسهم، زميلي في العمل غادر قبل عشر سنوات الإدارة إلى الأبد، ولكنّه ربح إنسانيّته (..) عرف عواقب الالتصاق بالوظيفة كحيوان داجن.** » [44] كما أنّه صار كثير الالتصاق بالشّيوخ والمتقاعدين، يشعر نحوهم بالإشفاق، لأنّه رأى في وضعِهِم العبثيّ مصيرَهُ الّذي ينتظره، يقول: « **لا أدري لماذا أصاحب الكهول والشّيوخ، والّذين تقاعدوا حديثا، أحسّ أنّهم لم يكونوا سعداء في عملهم، آثرُوا أن يقفوا على أصابع القدمين في مشاهد مكرّرة لا ذوق لها، يشقّون بمبادئهم الفجّة، تعصرهم الحياة ثمّ ترميهم على حافة السّكة.** » [45] وتجدر الإشارة إلى الموقف الإنسانيّ المؤثّر، الّذي عكسه فعل **إسقاط** مشاعر الشّيوخ المتقاعدين على الذّات ، فـ « **غاية الأدب هي نوع من الكشف والإنارة لبعض المواقف الإنسانيّة.** »[46]

تبلغ الثّورة النّفسيّة لدى الشّخصيّة أقصاها، حين تعبّر عن عزمها على **تطهير الذات** من أدران الماضي، رغبة منها في أنْ تُحرَقَ تلك الذات، وتنبعثَ من رمادها ذات أخرى منعتقة: « **سوف أتعامل مع نفسي كتعَامُلي مع مائدة طعام متسّخة بفضلات الطّعام (..) أرمي بكلّ شيء، أرمي بكلّ شيء في سلّة المهملات، سأعود إلى عملي بدون فضول، بدون وازع ضمير، لا يهمّني شيء على الإطلاق.** » [47] ثمّ تندفع مُبديةً رغبتها في **نقل ثورتها النّفسيّة إلى غيرها**، مُحفّزة إيّاهم على **التّمرّد** على الأعراف الّتي طوّقت أعناقهم: « **لذلك أدعو المجتمع بكلّ أطيافه أن يكسروا الطوق الّذي يقيّد حياتهم أو ينتحروا (..) الإنسان الحرّ هو من يتنصّل من هذه القوانين.** »[48]

يمكن اعتبار تمرّد الشّخصيّة على وضعها المهنيّ علامةً دالةً على **التّغيّر** الكبير الّذي لحقها جراء الوعي الجديد المكتسب، وثورتها النّفسيّة النّاقمة على وضعها الوجوديّ دليلاً على سيرها قُدما نحو **الانبعاث والتّجدّد**، ما يعني أنّ (ورديّة / المخلّصة) نجحت في مهمّتين، وبقي أمامها مهمّة أخيرة، تتمثّل في حمل " عوّاد "على إعادة النّظر في بعض القناعات التّاريخيّة الرّاسخة لديه ، فهل سيبدي الأخير تجاوبا، أم أنّه سيفشل في تجاوز عقدة (رُهاب التّغيير)؟

3-3)- **<u>سطوة التّاريخ ورُهاب التّغيير</u>**:

تعمّد الكاتب توظيف شخصيّات تحمل رؤى متباينة نحو الثّورة الجزائريّة، حيث اختلفت مواقفها بين من يُمجّد الثّورة ويُبجّل المجاهدين مضفيّا عليهم هالة من القداسة والتّنزيه، ويُمثّل هذه الفئة " عوّاد " . وعلى النّقيض من ذلك، نجد " عبد الهادي " الّذي كان يعتبرها مجرّد حرب عصابات شنّها مَارقُون عن القانون لتصفيّة حسابات مع أبناء عشيرتهم، فألصقوا بهم تُهم الخيانة والعمالة لإضفاء طابع الشّرعيّة على التّصفيّات الجسديّة الّتي طالت الكثير من الجزائريّين، ومن بينهم والده (زيّان) ووالد " ورديّة " (الآغا). يقول:

« **بعد مقتل أبي من طرف الفلاقة، انتقلت أمّي إلى المطمر، وبقيت هناك سنين (..)**

تنهّدت ورديّة وقالت له: ما أشبه قصّة أبيك بقصّة أبي، الفرق هو في التّوقيت، أبوك قُتل أثناء الحرب، وأبي تخلّصوا منه بعد الحرب !!

- شوفي يا ورديّة، الّذين قتلوا أباك الآغا، وقتلوا أبي زيّان، هم مجرّد حثالات، قطّاع طرق، رعاة، فرنسا لم تخطئ عندما وصفتهم بأقبح الأوصاف، والدّليل أنّهم لم يستطيعوا ولن يتمكّنوا من تأسيس دولة، انظري إلى تلك الصّفوف الطّويلة أمام السّفارات الأجنبيّة، انظري إلى عموم هذه الأمّة الّتي خذلها اللّه بخواتم أعمالها. » [49]

فـ " عبد الهادي " يعاني من عقدة إزاء التّاريخ الجمعيّ، مردّها حكم الإعدام الّذي أصدرته الجبهة في حقّ والده، وهو سيظلّ – في نظر المجتمع – ابن حركيّ، لذلك نجده لا يبدي حرجًا في تسميّة المجاهدين بـ " الفلاقة "، ويتبنّى موقف فرنسا من المجاهدين

الّذين اعتبرتهم مجرّد " قطّاع طرق"، ويقيم الحجّة على أنّ حرب التّحرير لا ترقى إلى مصاف الثّورات، مستدّلا بحاضر البلاد البائس.

" ورديّة " هي الأخرى عانت من الظلم التّاريخيّ، حيث: « **بدأت نكبة العائلة بعد الاستقلال (..) التّعامل مع العائلة كان قاسيًا، معنويّا وماديّا، صُودرت أملاكها وصُودرت سُمعتها، الأب آغا يموت في ظروف غامضة، يتفرّق الأولاد وتبدأ الملاحقات، كان الثّأر هو المحرّك الوحيد للسّلطات الجديدة، قال لي عمي الجيلالي الّذي عاصر الأب آغا لأكثر من عقدين من الزّمن، أنّه ساعد الأهالي أثناء الثّورة التّحريريّة، أنقذ مئات الأرواح، أحرج السّلطات الفرنسيّة في أكثر من مناسبة وهو يدافع عن المعتقلين، الشّيوخ الّذين عاصروه يعرفون قوّة شخصيّته، والطّيبة المستترة الّتي يكتشفها كلّ من خالطه، المسؤولون الجدد كانت لهم الكلمة صعب جدّا أن تقنع أحدهم أنّه كان يحبّ بلده.** » [50]

وعلى الرّغم من أنّ " ورديّة " تشترك مع " عبد الهادي " في المعاناة ممّا يعتبرانه ظلما تاريخيّا، بل أنّ ما تعرّضت له عائلتها يفوق بكثير ما لحق بأهل " عبد الهاديّ "، إلاّ أنّها – على العكس منه - استطاعت أن تتجاوز عقدتها من التّاريخ، وتصالحت مع ذاتها وتعايشت مع مجتمعها من خلال التّركيز على الحاضر بدل الانشغال بالماضي، كما يظهر في قولها: « **أنا أحبّ الحياة، أواجه سوء السّمعة بصدر رحبٍ، أعتبر تاريخ أبي صفحة يجب التّعامل معها باللا مبالاة، أنا وأنت من جيل جديد، من جيل آخر، من قدر آخر، ومن تربة أخرى، لا أريد أن يستمرّ معي التّاريخ إلى ما لا نهاية.** » [51] فهي تقف في منطقة وسطى بين تعصّب " عوّاد " للتّاريخ، وتقديسه للأسلاف، واعتبارهم من الأبطال المنزّهين. وبين تقزيم " عبد الهاديّ " للثّورة، وحطّه من قيمة المجاهدين، لأنّها مقتنعة بأنّ الثّورة التّحريريّة من إنجاز البشر، والبشر ليسوا منزّهين، وأنّ ما تعرّضت له عائلتها من إجحاف، كان سوء تقدير من بعض القادة، ناجم عن عدم التّقصيّ الدّقيق حول تضحيات العائلة، والحكم عليها استنادا على شهادات مغلوطة.

لذلك نجدها تعِيبُ على " عوّاد " مغالاته في تقديس الثّورة وتنزيه المجاهدين، وتدعوه إلى معاودة النّظر في قناعاته التّاريخيّة بكلّ موضوعيّة: « **قالت وهي تنبّهني إلى**

شيء ما: عـوّاد !! كلّ تلك الأساطير والخرافات والحكايات الّتي غزت عقلك مجرّد أوهام، تراكمت في ذهنك، ترسّبت في عقلك، أوهام تشبه الرّيح الخبيثة، قد تنتشر في العقول السّاذجة، لا أحد له مصلحة في ذلك، الوطن للجميع، أقفلت الهاتف وأنا في ذهول، كيف قالت لي ذلك دفعة واحدة !!

كنت أصرخ في داخلي وأنا أقول: لم تكن الثّورة خرافة ولا وهما، ولا سينما خيال (..) الثّورة مصير شعب انتصر على جلاديه، دافع، قاوم، تحدّى، أخيرا قال كلمته، كتب أجمل فصول الشّرف في الكتاب الكونيّ، كنتُ أصرخ من أعماقي، وأنا أعترض على ورديّة وهي تحدّثني عن الوهم والأسطورة. »[52]

ولأنّ " عـوّاد " متشبّع بفكرٍ ثوريّ تسرّب إليه من تاريخ والده الّذي كان مجاهدا، ثمّ مسؤولا كبيرا في الحزب بعد الاستقلال، فإنّه يبدي تحيّزه للثّورة وينزّه المجاهدين، ويزدري أبناء الحركى، ولا يتقبّل أيّ انتقادٍ للمجاهدين، حتى لو كان صادرًا من حبيبته " ورديّة ": « **أفكارها لم ترُق لي، ضدّ قناعاتي، خياراتي، نظري للتّاريخ وفلسفتي في الحياة، مجرّد الرّكون لحديثها خيانة لذاتي.** » [53]

لقد حاولت " ورديّة " تخليص " عـوّاد " من تلك الأفكار المرتبطة بالتّاريخ الّتي غزت عقله، وهي إذا كانت قد نجحت سابقا في مساعدته على **التّغيُّر**، مخلّصة إيّاه من سجنه الوجوديّ، بدءًا بإخراجه من مداره ثمّ تحرير عقله من قيود الأعراف الاجتماعيّة والمهنيّة، فإنّها لقيت منه **مقاومةً** حينما تعلّق الأمر بالتّاريخ، ما دفعها إلى الإعراض عنه: « **قلت كلمتي لورديّة فأعرضت عنّي، حرمتني من حبّها، النّساء سواء، لا فرق بين بنت شهيد وبنت حركي إلاّ بالقلب المفجوع.** » [54]

ولا تلبث تلك الحماسة العمياء الّتي حجبت عن " عـوّاد " الكثير من الحقائق أن تتلاشى شيئا فشيئا، خصوصًا بعد أن تهجره " ورديّة "، ويجد نفسه مضطرًا إلى إعادة التّفكير في كلامها، فيتوصّل إلى أنّه هو الآخر عانى من غبن اجتماعيّ وقهر تاريخيّ، وأنّ قناعاته لا طائل منها: « **يبدو أنّني أنا العبد الإداريّ أكثر مأساويّة منها، لا بالوطن فرحت ولا بالعمالة تمتّعت، كنت أنظر إليها وهي تبتعد عني في اتّجاه معاكس (..) فكّرت جيّدا في قناعاتي الّتي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، كأيّ " بونادم " يعيش القهر التّاريخيّ.** » [55]

فاختلاف الرّؤى بينه وبين حبيبته / مخلّصته، حرّك فيه الرّغبة في البحث عن بعض الحقائق التاريخيّة الّتي كانت خافيةً عنه، وكان ما توصّل إليه صادمًا، حيث أنّ شخصًا عاصرَ أباه، أطلعه على حقيقة زواج أبيه من زوجته الثانيّة " القلعيّة أمّ ورديّة "، وأنّ هذا الزّواج لم يكن بدافع الحبّ، بل كان انتقامًا من الـ " الآغا " والد " ورديّة ": « **أبي لم يعشق كما تبادر إليّ ذات مرّة، أبي تزوّج " القلعيّة " عنوة، انتقم لنفسه ذات يوم، وضعها بين رجليه وشرب رحيقها، وأحرق كلّ أراضي العرش باسم الثّورة، والحزب، والوطن، والتّاريخ.**

شعرتُ أنّ زفرة الحسرة تخرج منّي إلى الأعلى ساخنة، تخرج منّي دفعة واحدة، كمحاولة للتّحرّر من شيء !!! »[56]

فزفرات الحسرة تلك كانت إيذانا بإعلان الذّات رغبتها في التّحرّر من الأكاذيب التّاريخيّة الّتي شكّلت قيودا كبّلت العقل، وحرمته من حريّة التّفكير، ومنعت " عوّاد " من كلّ **تغيير إيجابيّ** يسمح له بالتّطوّر والارتقاء: « **أنا إنسان لا يزال في مرحلته الطّبيعيّة الأولى، أصدّق كلّ ما يُقال، وأحيانا أتبنّى تلك المقولات لعشرات السّنين، إذ كيف أصبحت موظّفا أقتنع بقليل العيش، وأحاول أن أكون مواطنا صالحا، حيوانا مجتمعيّا، أجامل النّاس بنفاق وأخفي سوآتي، أليس هذا وهم الأوهام ...** »[57]

وعلى الرّغم من اطّلاعه على حقيقة أبيه، وأنّه استغلّ تاريخه الثّوريّ وانتماءه الحزبيّ في إلحاق الأذى بعائلتي " ورديّة " و " عبد الهاديّ "، وأنّه انتقم من الآغا ، حتى يخلُوَ له الجوّ فيستمتع بجسد زوجته الفاتنة، إلاّ أنّ سطوة التّاريخ ورُهاب **التّغيير** وقفا حاجزا في سبيل تحرّره النّفسيّ، وعبوره إلى ذات أخرى منبعثة من رماد الذّات الأولى، ذلك أنّ إدراكه لكونه كان مخطئًا في خياراته الحياتيّة، وقناعاته التّاريخيّة، ليس كافيا – في نظره - للتّخليّ عنها: « **أنا مقتنع أنّني مخطئ في خياراتي الحياتيّة: الفكرة والمرأة والأصدقاء، والوظيفة والمكان والزّمان**

(..) مراجعة خياراتي صعب، أصعب من تغيير طباعي الّتي صقلتها الأيام. [58] »

فالذات تعيش صراعا داخليّا قويّا نتيجة تنازع رغبتين متساويّتين في الشّدّة: الأولى تتمثّل في توقِه إلى التّحرّر والانبعاث، والثانيّة تتمثّل في سطوة القناعات التّاريخيّة الّتي

لازمته طيلة حياته، ما ولّد **أزمة نفسيّة** شديدة أفقدته القدرة على تجاوز **رُهاب التّغيير**، والاستسلام عبر الرّضا بوضعه السّيزيفيّ السّابق الّذي عاشه داخل مدارٍ بين البيت والإدارة: « **سوف أعود للوظيفة ببساطة المواطن الّذي أخدمه، موظّف برتبة إنسان يرمّم كلّ حين أدميّته الّتي تنهار منها كلّ يوم أحجار شخصي البائس، أربع وعشرون سنة (..) لم أتنكّر يوما لا للإدارة ولا للوطن ولا للتاريخ.** »[59] كما لجأ إلى معاقرة الخمر لتجاوز هذه الأزمة النّفسيّة: « **كنت بحاجة إلى نبيذ خالصٍ يصرِف عنّي علائق الذاكرة وشوائب الماضي وإرهاصات المستقبل، رجل يتجاوز حاضره وماضيه الغارقين في أوحال الوعي المشوّه، مهما أنكرت من حاضري (..) فيعود إليَّ الوعي الزّائف، نقاوة الرّؤية منعدمة، أنا بحاجة لمزيد من النّبيذ لأثأر من واقعي.** »[60]

وأمام إعراض " ورديّة " الّذي استمرّ طويلا، لم يُطِق " عوّاد " صبرًا وزارها في بيتها، فشعرت بحسّها الأنثويّ أنّ شيئا ما حدث له فغيّره، فكأنّها تقف أمام شخص آخر:

« **- أنت عوّاد صحيح؟**

- كأنّك تتعرّفين إليّ لأوّل مرّة !

- أشكّ فيك.

- أنا عوّاد، الموظّف البائس الّذي يذرع أربعمائة متر لمدّة أربع وعشرين سنة. »[61]

لكنّ هذا الجواب لم يُقنع " ورديّة "، وألّحَتْ عليه محاولة استنطاقه:

«**- لست كذلك ! وأردفت قائلة: <u>أشعر أنّك إنسان آخر</u>، قل من أنت؟** »[62]

لقد شعرت " ورديّة " بأنّها أمام إنسانٍ آخر: ذاتٍ منبعثة من رماد " عوّاد " الّذي عاش تحت مستوى الوعي، ذاتٍ جديدة عرفت أباها على حقيقته، فتحرّرت من سطوة التّاريخ، وأدركت أنّ الثّوّار ليسوا منزّهين ... كانت تنتظر منه ردّا يحمل اعترافا بزيفِ قناعاته التّاريخيّة، وتحرّره من سطوتها، لكنّه **قاوم التّغيير** وأبدى تمسّكا **باللا حقيقة**:

« **رفعت رأسي إلى السّماء (..) سكتتُ برهة من الزّمن..**

- أنا عوّاد ابن ذلك المسؤول الحزبيّ المجاهد، الّذي كان يعشق أمّك " القلعيّة "، عادت إليه بعد وفاة أبيك (..) لا تأخذيني بجريرة أحد، أنا أحبّك رغما عن التّاريخ .

قالت لي وهي مُشِيحة بوجهها عنّي:

- أبوك ضاجع أمّي!

- قلت لها لا سيّدتي: أبي عشق المرحومة أمّك (..) وأنا عشقتك.
صاحت في وجهي: انصرف ! »[63]

فرغم معرفته بحقيقة ما جرى بين والده و" القلعيّة " أمّ " ورديّة "، وإدراكه أنّ محبوبته لن تأخذه بجريرة أبيه، وأنّها لا تريد منه سوى التّحرّر من قناعاته التّاريخيّة الّتي اكتشف زيْفَها، إلاّ أنّه لم يتمكّن من تخطي سطوة التّاريخ وتجاوز " رُهاب التّغيير ". وأمام هذا العجز، أيقنت (ورديّة / المخلّصة) استحالة حدوث تجديد، لأنّ " عوّاد السّيزيفيّ " لا يزال حيًّا يرزق، لم يَحْرق نفسه، فلا نار ولا رماد ولا انبعاث.

4)- **<u>خاتمة بأهمّ النّتائج الّتي توصّل إليها البحث</u>** :

- نهضت الرواية على أسطورتين : الأولى أسطورة سيزيف الّتي كانت معادلا موضوعيّا لحياة " عوّاد " تحت مستوى الوعي داخل مدار الأربعمائة متر، والثّانيّة أسطورة الفينيق الّتي جسّدت مرحلة الوعي وما صاحبها من محاولات انعتاق ممّا اعتبره قيودا، سعيًا منه إلى التجدّد والانبعاث.

- العلاقة الّتي جمعت بين " عوّاد " و " ورديّة " كانت بمثابة **الحدث الصّادم**، الّذي جعله يكتشف حقيقة وضعه الوجوديّ المُماثل لوضع " سيزيف "، وأكسبهُ وعيًا حفّزه على التّعبير عن رغبته في **التّجدّد** والانبعاث

- تكفّلت " ورديّة " بمهمّة مساعدة البطل " عوّاد " ، وهي – في نظره - بمثابة المُخلّصة الّذي يتكفّل بمهمّة نقله من وضع وجوديّ إلى أخر، وهذا يتطلّب حمله على التّخلي عن قناعاته السّابقة، بغية بعث ذات أخرى تعيش فوق مستوى الوعي.

- ظهرت بوادر التّجدد والانبعاث لدى الشّخصيّة من خلال تمرّدها على وضعها المهنيّ، وثورتها النّفسيّة النّاقمة على وضعها الوجوديّ، ورغبتها في التّحرّر من قناعاتها التّاريخيّة الّتي شكّلت قيودا كبّلت فكرها،

- عانت الشّخصيّة من أزمة نفسيّة حادّة، نتيجة عجزها عن تجاوز سطوة القناعات التّاريخيّة الزّائفة، الّتي كبحت رغبتها في الانبعاث، وجعلتها تستسلم لرُهاب التّغيير.

*** *** ***

5)- **الهوامش**:

1 - عبد الرّضا علي، الأسطورة في شعر السّيّاب، منشورات وزارة الثقافة العراقيّة، العراق، 1978، ص 19 - 20

2 - علي قاسم الزّبيديّ، دراميّة النّص الشّعريّ الحديث (دراسة في شعر صلاح عبد الصّبور وعبد العزيز مقالح)، دار الزّمان، دمشق، سوريا، 2009، ص 173

3 - عزّام محمّد، الأسطورة في الشّعر السّوريّ المعاصر، مجلة الموقف الأدبيّ، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، العدد 372، آيار، 2002، ص 64.

4 - بن جبار محمّد، أربعمائة متر فوق مستوى الوعي(رواية)، دار الأمل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، (د ت)، ص 5

5 - م . ن، ص 6

6 - م . ن، ص 5

7 - آرثر كورتل، قاموس أساطير العالم، تر: سهى الطريحي، دار نينوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، دمشق – سوريا، 2010، ص 126

8 - بن جبار محمّد، أربعمائة متر فوق مستوى الوعي(رواية)، مرجع سابق، ص 12

9 - ألبير كامي، أسطورة سيزيف،تر: أنيس زكي حسن، ، دار مكتبة الحياة بيروت 1983، ص 45

10 - بن جبار محمّد، أربعمائة متر فوق مستوى الوعي(رواية)، مرجع سابق، ص 13

11 - م . ن، ص ن.

12 - م . ن، ص 91

13 - م . ن، ص 10

14 - م . ن، ص 9

15 - م . ن، ص 29

16 - م . ن، ص 11

17 - م . ن، ص 93

18 - م . ن، ص 13-14

19 - م . ن، ص 12 -13

20 - م . ن، ص 123

21 - م . ن، ص 114 -115

22 - سيّد القمني، الأسطورة والتراث، المركز المصري لبحوث الحضارة، ط3، مصر، 1999، ص 25

23 - بن جبار محمّد، أربعمائة متر فوق مستوى الوعي(رواية)، مرجع سابق، ص 33

24 - م . ن ، ص 111

25 - ادموند فولر، موسوعة الأساطير (الميثيولوجيا اليونانيّة – الرّومانيّة – الاسكندنافيّة)، تر: حنا عبود، دمشق، الأهالي للطّباعة والنّشر، ط1، 1997، ص 178

26 - أمين سلامة، معجم الأعلام في الأساطير اليونانيّة والرّومانيّة، مصر، دار الفكر العربيّ، ط1، 1955، ص 239

27 - بن جبار محمّد، أربعمائة مترفوق مستوى الوعي(رواية)، مرجع سابق، ص 86

28 - م . ن ، ص 70

29 - جابر عصفور، رؤى العالم، عن تأسيس الحداثة العربيّة في الشّعر، ط1، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، 2008،ص 219

30 - كلود ليفي شتراوس، الأسطورة والمعنى، الأسطورة و المعنى.- تر : صبحي حديدي.- الدار البيضاء، منشورات عيون، الطبعة الثانية، 1986. ص 6

31 - بن جبار محمّد، أربعمائة مترفوق مستوى الوعي(رواية)، مرجع سابق، ص 115

32 - م . ن، ص 63 -64

33 - م . ن، ص 70

34 - م . ن، ص 93

35 - م . ن، ص 61-62

36 - م . ن، ص 79

37 - م . ن، ص 14

38 - م . ن، ص 127

39 - م . ن، ص 83

40 - م . ن، ص 57

41 - حنا عبّود، النّظرية الأدبيّة الحديثة والنّقد الأسطوريّ، (د ط)، 1999، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ص 38

42 - بن جبار محمّد، أربعمائة مترفوق مستوى الوعي(رواية)، مرجع سابق، ص 28

43 - م . ن، ص 54

44 - م . ن، ص 124

45 - م . ن، ص 53 -54

46 - بوشوشة بن جمعة، سرديّة التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، الدار المغاربية للنشر، تونس، ط1، 2005 ، ص 33

47 - بن جبار محمّد، أربعمائة مترفوق مستوى الوعي(رواية)، مرجع سابق، ص 136

48 - م . ن، ص 79

49 - م . ن، ص 141

50 - م . ن، ص 88 - 89

51 - م . ن، ص 146

52 - م.ن، ص 146
53 - م . ن، ص 148
54 - م . ن، ص 151
55 - م . ن، ص 151
56 - م . ن، ص 156
57 - م . ن، ص 148
58 - م . ن، ص 152
59 - م . ن، ص 148
60 - م . ن، ص 111
61 - م . ن، ص 159
62 - م . ن، ص 159
63 - م . ن، ص 159